دراما من اسخيلوس

الفـــرس (١)

Persae

للأستاذ دريني خشبة

اشترك إسخيلوس فى الحروب السامية التى نشبت بين فارس وهيلاس ، وكان ميدانها وطنه والبحار المحيطة به ، وقد اشترك كذلك فى موقعة سلاميس البحرية التى تحطم فيها أسطول إجزرسيس ثم ظل متصلا بالجيش اليونانى إلى ما بعد انتصاره فى بلاتيه وميكالى ؛ ولذلك تعتبر هذه الدراما مصدراً هاماً من مصادر هذه الحروب ، ويعدها مؤرخو الأدب اليونانى أصدق مما ورد فى تاريخ هيرودوتس بصدد الحرب الفارسية . ذلك لأن أسخيلوس كان شاهد عيان لوقائع هذه الحرب بينما كان المؤرخ اليونانى مايزال طفلا لا يزيد عمره على خمس سنوات . وقد مثلت الدراما بعد موقعة بلاتيه بسبع سنوات

— ١ —

ينقلنا إسخيلوس إلى فارس سيدة الأرض ، ويطوف بنا دارات عاصمتها « سوس » حتى نقف عند القصر الملكى المنيف ، مقر الأكاسرة ، وقلب الأمبراطورية النابض . فنحن إذن بعيدون عن ميادين القتال فى البر والبحر ، لا نشهد الطعن والضرب ، ولا نرى إلى فتك الحراقات اليونانية بأساطيل الأعداء ، ولا نهولنا هرولة الكتائب الفارسية فوق تلك القنطرة الضخمة من السفن المتراصة بين عُدْوَتى الهلسبنت تنساب فوق بطائح هيلاس كأنها سيل العرم . . . ثم لا يهولنا عاهل العجم البائس وقد وقف فوق أكمة تشرف على أبيدوس وما يجاورها من شطئان الهلسبنت ، يطل على جيوشه الجرارة تعبر البحر الزاخر . . . ويبكى . . . فاذا سأله وزيره : « فيم بكاؤك أيها الملك ؟ » شهق شهقةً عميقة وقال : « أنظر أيها الوزير : هذه طروادة ! وهؤلاء جندى ! ويبكينى ألا يكون أحد من هذه الألوف عائشاً بعد حقبة واحدة من الزمان ! أليست هذه طروادة ؟ ؟ »

لن نرى إلى شىء من ذلك ، ولكن نرى عصبة عتيدة من مشايخ فارس وساداتها النُّجُب يتناجون فى حديقة القصر ، متلهفين إلى خبر يذهب بهذا القلق العظيم الذى يساورهم من جراء انقطاع أخبار الجيش . . . وهم يذكرون دارا الأول ، والد الأمبراطور ، بخير ما يذكر به ملك شاد دعائم ملكه على العدل ، وقاد جيوش بلاده إلى النصر ، ورتع فى ظله رعاياه فى بحبوحة من العز وبلهنية من النعيم . . . وهم (١) كذلك يصفون لنا أبهة جيش أجزرسيس وعظمة جحافله ، وهذه الآلاف المؤلفة من الفرسان والمشاة والسكاة والرماة ، من مشارق الأمبراطورية الكسروية ومغاربها . . . من حفاف السند إلى ضفاف النيل ، ومن أعالى دجلة والفرات إلى أسافل النوبة وإثيوبيا . . .

وهم لا يخفون ما يساورهم من قلق ، ويخامر قلوبهم من شك فى مصير هذا الجيش العرمرم الذى قذفت به آسيا ليهلك فى ربوع أوروبا ، ويجوع ويعرى فى مشارق جبالها ، وتلتقمه الأسماك فى بطون البحر المضطرب . . . لا سيما ومنهم من نصح للأمبراطور ألا يجازف بهذا العدد العديد ضد هيلاس ، فكان جوابه أن أقام إلى جانبه رجلا من أمنائه يقول له فى كل لحظة : « مولاى ! لا تنس الأثينيين ... مولاى : لا تنس الأثينيين (٢) »

— ٢ —

وبينما هم فى تناجيهم إذ تقبل آتوسا — الأمبراطورة الأرمل — زوجة دارا ، وأم إجزرسيس ، والتى قست عليها المقادير فناءت على قلبها بأحزان امبراطورية بأسرها ! !

تقبل آتوسا فيصمت القوم ، ويهرعون اليها يسائلونها عما آل اليه أمر الجيش ، وهل أفاءت عليه الآلهة بالنصر المرجو والغَلَب المنشود ؟

فتقول آتوسا : « مواطنى الأعزاء ، وأبنائى الأوفياء ! تسائلوننى عما أقبلت فيه ، وهرعت اليكم من أجله . . . فوالله لقد ضقت بغرفات هذا القصر على سعتها ، وخلتها حجيا على أنها جنة نعيم ، أليس فيها كنت أحلم بالخلد فى حضن دارا ، وأجيل الطرف من شرفاتها معه على أمة سعيدة هادئة ناعمة ، عيشها مخفرج ، وجانبها

(١) الدرامة الباقية من ثلاثية رائعة مايزال جزآها الأول Phineus والأخير Glaucus of Potniae مفقودين وتعتبر هذه الثلاثية أول قطعة رومانتيكية فى التاريخ إذ لا تستند إلى شىء من الأساطير كما لاحظنا فى درامات إسخيلوس

(١) هؤلاء الأشياخ هم خورس الدرامة

(٢) هذه النغمة غير موجودة فى الدرامة وقد استعرناها من هيرودوتس

عزيز ، وسلطانها قوى ، وظلها ممدود ، وسؤددها يطوى السهل والجبل ، وثروتها زاخرة وافرة ؟ ! فماذا أرى اليوم ؟ أليس ابنى قد جمع خير كل ذلك ، ومضى لطيته التى لا يعلم ما وراءها أحد ؟ ها هى ذى الرياح تصفر فى هذا القصر الذى نأى عنه سيده ، فكأنه خراب على رغم خزه وديباجه ، وشتى تماثيله وتصاويره ... ويحى ! لقد جئت اليكم يا سادات فارس ألقى اليكم بعبء الوساوس التى تجثم على صدرى ، وتثقل كاهلى ، فهل أجد لديكم الكن الأمين ، والمشير الوقى ، والناصح الذى إذا نصح أخلص النصح ؟ »

— « أيتها الملكة ؟ ... نحن عبيدك وبعض رعاياك .. ولك فى أعناقنا الولاء والوفاء ... تكلمى بما تشائين وثقى من اخلاصنا وبعض نصحنا »

— « إذن فما هـذه الأحلام المروعة والرؤى المفزعة التى تجتاحنى كل ليلة حين آوى إلى الفراش ، منـذ أن انطلق ابنى بهذا الجيش اللجب ليغزو بلاد اليونان ؟ على أن رؤيا أمس لم تكن مثلها رؤيا قط . ذلك أنها كانت واضحة بينة حتى ما تكاد تحتاج إلى تفسير أو تفتقر إلى تأويل ... رأيت فتاتين هيفاوين ممشوقتى القد ، أحداهما دورية[1] ناهدة تميس فى حلى وفى حلل ؛ والأخرى فارسية سمهرية ، تختال فى برد ووشى وأفواف ... رأيتهما تقبلان إحداهما على الأخرى ، ثم تأخذان بتلابيب بعضهما البعض ، ويكون شجار بينهما ، لأن إحداهما بغت على أختها ، وحاولت الاستئثار بدارها من دونها . ورأيت ابنى إجزرسيس مشرفاً عليهما من مرتقى صعب ؛ فلما استحر القتال بينهما نزل إلى حيث حاول أن يجعل نيره فى عنقيهما معاً ... وذلت إحداهما واستكانت ، ولكن الأخرى ، ولكن الدورية أبت وأنفت ، ودفعت النير بكل ما أوتيت من قوة ، فغاصت الفارسية فى لجة من دم ، وتحطمت عربة ولدى الأمبراطور فوقف حيث كان قبل أن يتدخل بينهما ، وأخذ يبكى وينشج ، ويشق الأردان ويمزق الجيوب ... وهنا وقف إلى جانبه أبوه ... الأمبراطور المبكى ، دارا ، وطفق يرثى له ويهون عليه

هذه رؤياى يا سادات فارس النجب ... ولكن ... ما تزال بقية ... فانى حينما هببت من نومى ، عسيت أن تكون رؤياى أضغاث أحلام ، فقلت أتوجه إلى مذبح الآلهة مانحة الضر ، أقرب لها وأضحى ، عسى أن تنفعنا ، وما كدت أغمس يدى فى النبع المقدس ، وأنثر بخور الند فى المجمرة ، حتى لمحت نسراً مهيض الجناح لائذا بقدس أبوللو[1] ... ثم ينقض عليه باز باشق ، فما يزال به يوسعه ضرباً وتجريحاً حتى ينتفض النسر ويلوذ بالفرار ... ويلاه ! إن الرؤيين ... فى المنام وفى اليقظة ، تفسر إحداهما الأخرى ، فيا ترى ؟ هل هما نبوءتان على إجزرسيس ؟ وهل أعيش حتى أرى ولدى إن كان ما يزال حياً يرزق ؟ ! »

— ٣ —

وشده سادات فارس ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم أشاروا على الملكة المحزونة أن تذهب إلى قدس الآلهة فتقرب لها وتضحى ثم تسأل عن رؤياها ، وتتضرع أن تتلطف الأرباب بابنها وجنوده ومملكته ، إن كانت الرؤيا حقاً ... وإلا ... فلترق الخمر باسم دارا العظيم الذى زارها فى رؤيا أمس حين وقف إلى إجزرسيس يرثى له ويهون عليه ، فاذا بدا طيفه لها فلتسأله أن يبارك ابنه ، ويغدق البركات على فارس كذلك

ويتحول مجرى الحديث فجأة ، فتسأل الملكة عن هذه الحرب ما سببها ؟ ويجيب السادات أن الأمبراطور أراد أن تخضع له أثينا .

— « فاذا خضعت له أثينا ؟ »

— « خضعت له هيلاس كلها ! ! »

— « وهل هيلاس من القوة بحيث تحشد لمحاربتها كل تلك الجحافل ؟ »

— « وكيف لا وهى أقوى دولة فى العالم بعد فارس ؟ وهل نسينا أنها دمرت جيش دارا ؟ »

— « أو غنية هى ؟ »

— « غنية جدا ، وفى بطنها ثروة من الفضة لا تقدر بثمن »

(لها بقية) ورينى عشبة

(١) من إحدى القبائل اليونانية

(١) هكذا بالأصل (فويوس) ولا ندرى لم يخلط اسخيلوس هنا الخلط فالمعروف أن الفرس كانوا يعبدون بألهين اثنين : إله النور وإله الظلام ولم يعرفوا الآلهة اليونانية